

## المنهج العملائي في الإحصاء والعلوم الجديدة

من العقائد إلى العلوم

٣٣ سنة مع مآءداتا



كتب الدكتور كاظم نور الدين ذات يوم من عام ١٩٩٢ مقالته

الشهيرة: " رحلة ال ٢٤ ساعة مع مآءداتا".

بعد إنجاز استطلاعات الرأي العام التي استبقت الانتخابات النيابية ونشرت نتائجها قبل

إجرائها، وصدقت الاستطلاعات في كشف الخروقات للوائح تحالفات السلطة ورأس المال

والميليشيات وكل أنواع المخابرات، التي اتحدت بعد الطائف تحت شعار لوائح الإجماع ..

وكانت نسبة الخطأ في بيروت ٠,٦٪ بين الاستطلاع والصناديق .

وفي الجنوب بشرت المرحوم مصطفى سعد بخرقه للائحة العظمى .. فرغ التنظيم

الشعبي الناصري لافتة تهنيء مآءداتا في وسط صيدا . فكان علينا أن نهنئه بوفد علمي ونتشرف

بالتعرف عليه، ليكون نعم الصديق ونعم من اتخذ الرقم الصحيح في كل قرار خطير، فخرق

اللوائح في كل انتخابات لاحقة واقتسم البلدية عام ١٩٩٨ إلى أن هزم حلفاؤه لائحة الرئيس

الحريري البلدية في عز سلطانه عام ٢٠٠٤، مستضيئين بنور الارقام و"استطلاعات رأي "

الناخبين التي كانت تتم قبل وبعد كل نشاط للائحتين المتنافسين .. ثم كان "استطلاع سلوك "

الناخبين عند خروجهم من مراكز الاقتراع .. فبشرناهم بالنتيجة وبدأوا الاحتفال بها وسط ذهول

المحافظ والإعلام الذين رافقوا وشهدوا على ذلك!

منذ قديم الزمان تولد علوم ومدارس علمية وتموت سواء جاء من يرثها أو لم يأت .  
تماما مثل كل المخلوقات والظواهر المتصلة بها كالدول والجماعات والعادات وسائر العلاقات ..  
والله الدائم وحده.

غير أن المعرفة والحضارة لا تتطور الا بابداع علوم جديدة وإنشاء مدارس جدية لتطبيق  
العلم وصناعة معرفة وحضارة جدية..

وهذا ما يخلق تحديات وصراعات وحروب جدية، مع المدارس القديمة التي يدأب اتباعها  
على حفظ ونسخ ما ورثوه من محاضرات وكراريس، وصل التسليم بها إلى حد حفظها ببعثا  
دون فهم ولا تمحيص، لأنها صارت عقائد جامدة ومسلمات عميانية ..وهؤلاء جاهزون دائما  
لمحاربة كل فكر جديد مثل حروب الدول بل لخدمة الدول القائمة وبنائها العتيقة لأن كل فكر  
جديد سيولد جديدا في المعرفة والسياسة والاقتصاد والعلاقات المختلفة..

لذلك يجتهد كل فكر جديد بنشر قوانينه وتطبيقاته وتماثيله ونتائجه دون أسرار، ما  
ينسجم مع النظرية الإيمانية "زكاة العلم نشره"، بينما يقوم التبعيةون بفرض سلطانه القائم على  
التقليد والقدم وسلطان السلطات القائمة سواء في النظم التعليمية والإدارية أو السياسية الشاملة  
التي تخفي في دهاليزها كل أسرارها من معارف وأرقام وفساد وتخلف وجهل وظلم واستبداد !  
لأنها بذلك تريد إعادة إنتاج نفسها واستمرار سلطانه ..لذلك تحارب العلم الجديد وتحارب التطور  
وتقمع الناس وتحارب الرأي العام وتحاول تزويره وترويج واستخدام المزور، كما خلقت مراكز  
لاختراع الارقام الإحصائية على يد "خبراء" غير احصائيين وسخروا لهم المال والإعلام ظنا  
منهم انهم يغيرون الرأي العام!

انهم يستطيعون احيانا وربما غالبا تغيير النتائج الانتخابية مثلا، لكنهم لا يغيرون الرأي  
العام ابداء، لأن ذلك يحدث بالتزوير والرشوة ويدفع أكثرية الرأي العام إلى الأنكفاء وعدم  
المشاركة كلما غابت قيادات الرأي العام أو تفتتت ليرتد ذلك إلى يأس الناس من المشاركة، كما  
حصل في انتخابات بيروت بين ١٩٩٦ و ٢٠٠٠، ففي الأولى أعطى الناخبون للمعارضة التي  
لم تتوحد وبقي التشرذم في انتخابات ٢٠٠٠ فهبطت نسبة المشاركة بشكل مذهل وانكسر  
المرشحون الشعبيون لتفتتتهم وكان الرئيس الحص أبرز الضحايا ..بعدها وحدت الرأسمالية قواها

ونظمت هجومها بلوائح في كل الدوائر، بينما استنكف الرئيس الحص عن دعم أصدقائه في الدوائر الأخرى من بيروت نفسها، فياس الناس قبل المرشحين! وكشفت استطلاعات الرأي ذلك وحذرت من مغبة التقلت الذي سيترك الرئيس الإصلاحي الجديد اميل لحود بلا أكثرية نيابية تدعم برنامجه فيفشل ولا يكون أمامه سوى الاستقالة) في حلقة تلفزيونية مباشرة مع عماد مرمّل، قناة المنار، قبل الانتخابات (وكان ما كان حتى وصلت الاكثريّة النيابية وحكومتها مع السنيورة إلى تنظيم "حملة فل" ضد الرئيس لحود وتهميشه ومقاطعته حتى جافاه حلفاؤه بعد ٢٠٠٥ ! ومثل ذلك يحصل في ٢٠٢١ بعدم تشكيل حكومة لتفشيّل ما تبقى من عهد الرئيس عون، وتفشيّل اي محاولة للإصلاح ومحاسبة الفاسدين ومن سرق أموال الدولة والمصارف والمودعين، بعدما فوت العهد فرصة الإصلاح بداية بالتحالف مع أركان الفساد وغرق أصحابه في المحاصصة والطائفية العنصرية التي تغطي كل الفساد بخطوطها الحمراء!

كانت الأرقام تكشف الأسرار إذ أن سر العلم انه لا سر فيه! وقد كنا ننشر الأرقام التي ارتد بعضها علينا باضطهاد السلطات واذنابها ومن لا تعجبهم.. فقط كنا نتحفظ على نشر أرقام تضر بأمن الدولة وأمن المجتمع إذ تكشفه أمام الأعداء ونضع ذلك بتقارير خاصة أمام كبار المسؤولين، الذين قلما تلقينا منهم كلمة طيبة، بينما لم نتلق طلب استشارة لحل الامرة واحدة من الرئيس لحود! وكان الكل ينتظر أرقامنا وتقاريرنا، التي تنشر مجانا في الصحف، بمن فيه القوى الأمنية والمخابرات المختلفة..

ولم نكن نشعر بقيمة وخطورة ما ننشر من أرقام حتى دعانا قائد المقاومة السيد حسن نصر الله بعد شهرين من التحرير في تموز ٢٠٠٠ ليقول: "انتم بحق شركاء في التحرير.. انتم بارقامكم المنشورة سددتم عنا جبهة تمتد من طوكيو إلى واشنطن، نحن وغيرنا لا نستطيع سدها" ..

بعد ذلك قال صحافي صديق: لماذا قللتكم إرسال استطلاعاتكم؟

قلت: لأنكم لا تنشروها!

قال: نحن نقبض حتى لا ننشرها.

وهكذا تم الإطباق على تجربة كانت تكشف الفساد والحقائق ورأي الناس الصريح بصدق وأمانة حيث كان الناس يدلون بأرائهم بصراحة ووعي وشجاعة تثبتتها صناديق الاقتراع. حتى شهد رئيس المجلس الدستوري أن أرقام مائدات المنشورة والموثقة في جريدة النهار كانت أحد مصادر المجلس الدستوري في إصدار الطعون بانتخابات ١٩٩٦. وحيث اعيدت الانتخابات كانت النتائج مصدقة لنتائج مائدات (المركز الإحصائي الاستشاري للدراسات والاستطلاعات والتدريب والاستعلام، تأسس في بيروت ١٩٨٨).

### المنهج العملائي: الإبداع العلمي والتجارب التطبيقية

بدأ التأسيس المنهجي بنقد بعض المفاهيم والمصطلحات المستخدمة في العلوم والثقافة الرائجة والكتب والمحاضرات الجامعية ووسائل الإعلام ..ووصل إلى رفض بعضها ورفض نتائجها ..

من ذلك رفض المنهج الاستعماري والاستثماري في الدراسات الإحصائية الاجتماعية، والتي قوامها استغناء الناس والتحايل عليهم للوصول إلى المعلومة ثم التجسس عليهم بطلب المعلومات الشخصية واخيرا الكذب المتنوع من عدم التصريح عن هدف الدراسة ومرجعيتها أو التصريح الكاذب او الوعود الكاذبة بمنافع لاحقة ..وغير ذلك.

وقد لاحظنا واكتشفنا عقم هذا المنهج وفشله والوصول إلى نتائج خاطئة .بل واكتشفنا أن بعض الباحثين سقطوا دون دراية وبعضهم كان راغبا بالحصول على نتائج غير صحيحة .. وآخرون لا فرق عندهم ولا يحملون هما إلا أن يضعوا أرقاما وكلاهما ويجصلون على فوائد ولا يهتمون لما يؤول إليه ذلك!

### مزلق المصطلحات

يبدأ انزلاق الباحث وسقوطه أمام مجتمع البحث ثم فشل البحث كله من كلمات ومصطلحات يستخدمها في حديثه واسئلته، كان يسمى بحثه التحقيق أو الاستجواب ويسمى المقابل بالمبحوث أو المستجوب ..

وهذه مسائل يعتبرها أصحابها عادية لأنهم تعودوا عليها في مدارسهم وفرضت عليهم وهم لا يعقلونها..

ولما استخدمنا تعابير البحث بدل تحقيق أو استجواب والمقابل بدل المحقق والمقابل بدل المستجوب والبحوث..تغير استقبال الجمهور تجاوبه ثم موضوعية النتائج.

### مزالق الأداة أو الاستمارة

مهما يكن الموضوع هاما بالنسبة للناس تعتمد المناهج القديمة البدء بالمعلومات التوثيقية الشخصية مثل اضبارة التحقيق العدلي أو الاستجواب الجنائي في فكر الناس أو يملون قبل الدخول بالموضوع.

وإذا كانت الأسئلة كثيرة أو السؤال الواحد طويلا أو مبهما فإن الناس يملون وتتقطع المقابلة أو تصبح الأجوبة كيفما كان لاختصار الوقت والتلمص..

وإذا كانت الأسئلة تحمل خيارات للأجوبة محددة سلفا فتكون النتائج منحازة سلفا

لمصلحة الخيار الأول ثم الثاني ضد الآخرين..

وإذا كان السؤال متذاكيا، احتياليا أو تجسسيا، فإن ذلك يكشف غباء الباحث وسوء نيته التي لا تمر على الناس فيقابلون ذلك بمثله أو يقطعون المقابلة..

### مزالق الباحث الشخصية

منها أن يكون متكبرا أو متهكما أو متذاكيا أو مؤستذا أو لا مباليا أو غامضا أو مريضا

أو متعبا من الجوع أو العطش أو النعس أو مستعجلا أو متباطئا..وغير ذلك مما لا يعكس الجدية والاحترام فلا يحصل التجاوب والاهتمام والصدق المطلوب..

وهذا ما يحصل عادة مع غير المختصين وغير المدربين، حتى لو كان مختصا، ممن

يتم استخدامهم باجر مغر أو تسخيرهم للعمل مجانا أو تطوعا اراديا.

### المنهج البديل

بعد معالجة كل تلك المشاكل وإيجاد بدائل مقنعة ومقبولة تولد منهج جديد، بعدما استفاد أيضا من تطويع واستخدام العلوم الحديثة الأخرى التي تتصل بموضوع البحث في إطاره النظري والحقلي واستخدام التقنيات والآلات المناسبة كوسائل الاتصال الحديثة والكمبيوتر والمعلوماتية، مع الإشارة إلى أنه في الاستطلاعات والإحصاءات الحيوية يفضل جمع المعلومات وجها لوجه على طريقة المعاينة الطبية لأن للنظر دور ومسؤولية في تأمين سلامة المقابلة..